الفصل الأول

حجاب الظلام

تعال أيها الليل الأسود، واحجب نفسك في دخان نفسك في دخان كثيف من جهنم... فإن السماء لن تبدو من خلال حجاب الظلام.

شكسبير، ماكبث.

كانت العصور الوسطى في أوروبا مظلمة حقاً. وقد تلت انهيار الامبراطورية الرومانية البطيء على يد الشعوب البربرية، ولكن لم يسد الظلام جميع أوروبا فجأة ومرة واحدة. ذلك أن روما لم تنشأ في يوم واحد، وكذلك لم تدمر في يوم واحد آخر. ومع ذلك فأن تكرر الهجمات البربرية البدوية الواحدة بعد الأخرى وراء نهري الدانوب والراين واجتياحها للعالم الروماني مرة تلو المرة، قد أدى إلى تصدع صرح الحضارة في الغرب بشكل تدريجي، ومع بداية النصف الثاني من القرن السادس خيم الظلام بشكل كامل على بلاد روما، حتى أن البابا غريغوري العظيم رحب على نحو فعلي بالوباء الرهيب الذي دمر إيطاليا في ذلك الوقت واعتبره بمثابة منقذ رحيم من فزع الحياة اليومية، وصرح في يأس قائلاً: «إذا نظرنا إلى الطريقة التي مات فيها أناس آخرون فإننا نطمئن إلى كيفية الموت الذي يتهددنا. يا لها من مضاعفات ويا لها من أعمال وحشية رأيناها يُبتلى بها الرجال بحيث كان الموت الملجأ الوحيد للهروب. لأن الحياة فيها عذاب مرير. فقد رحل كل عجب وأبهة لكرامة الحياة في هذا العالم، فلم يعد هناك مجلس أمة ومات كثير من الناس ومع

ذلك فإن الأنين والحزن يتضاعفان يوماً بعد يوم بين القلة الباقية، وها هي روما كما كانت قبلاً فارغة تحترق».

وخلال القرون التي تلت لم تُفعل إلّا القليل لوقف عملية الفساد والدمار فيما عدا عصر شارلمان، وقد كان سريعاً حيث تركت المدن تدمر وتشتعل النيران فيها وتخربها الحروب، أما سكانها فكانوا يذبحون وتبيدهم الأمراض، وأصبحت خراباً تسكنه البوم، وتجنب سكناها الناس خوفاً من اللصوص الذين اختبأوا أحياناً في خرائب بيوتهم، واستمرت الحياة في أماكن أخرى لكن ببضعة آلاف من السكان، بينما كان عدد الذين كانوا يعيشون في العصور الرومانية عشرات الأضعاف، وفي نفس الوقت، أهملت شبكة الطرق الرومانية التي كانت تربط العالم مع بعضه بعضاً وتسبب له الازدهار وحيث ثبت عدم إمكانية تخريبها تماماً لم يكن من الممكن منع قيام أخاديد أو تخريب بسبب عامل الزمن أو الطقس، وكانت الأتربة تغطيها في الصيف وتتحول إلى طين في الشتاء وتنتشر فوقها الأعشاب والحشائش ونبتت الشجيرات الصغيرة بين أحجار أرصفها مما أدى إلى إغلاقها.

وفي الريف المنخفض الذي جففه الرومان وصانوه من الفيضانات بإقامة السدود السطحية الضخمة، عادت الطبيعة وفرضت أثرها فيه، فإنهارت الأعمال الأرضية، وجرفت المياه آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعية الجيدة، واختفت قرى كاملة وتركت أعداداً قليلة من قاطني المستنقعات ليحتالوا على العيش في حالة وجود بدائية غير مستقرة بالصيد وأكل الضفادع والأسماك، وفي أماكن أخرى هجرت أصقاع شاسعة من الأراضي الزراعية التي أصلحها الرومان بسبب عدم ترك أي شخص يحرث التربة، وقلّصت الأمراض والحروب أعداد السكان بشكل مثير، أما في الأماكن الريفية البعيدة عن المدن والقرى تركت الآجام الشوكية تنمو، وكان من الخطر الشديد العيش في حالة ريف محفوف بالمخاطر والإجرام.

وفي تلك الأوقات كانت أوروبا في الزمن الروماني قبل قدوم العصور

المظلمة لا تزال منطقة غابات وأراض وقفار مستنقعية وعشبية مفتوحة كما هي كندا اليوم، حيث كانت تجوب مجموعات الذئاب في تلال وغابات ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا. كما كانت الدببة الأوروبية منتشرة تبحث عن الكمأ في ضواحي باريس، وفوق التلال حول فلورنسا، بينما كانت قطعان الغزلان الكبيرة تشاهد في كل مكان، ونظراً إلى أن الحياة الحضارية قد انهارت فقد انتشرت صور وأشكال الحياة الريفية الطبيعية بشكل واسع فوق مناطق الحراثة والفلاحة قديماً، بحيث دفعت الناس إلى تقليص أعمالهم وقصرها في الأراضي الزراعية حول المدن والقرى وحول البيوت الريفية التي أنقذت من الدمار عبر الأيام، ووصلت الأمور إلى غاية السوء سنة 800، مع قدوم النورمانديين الذين كانوا آخر البرابرة الشماليين حيث اجتاحوا في موجة كبيرة وقاموا بالأعمال التخريبية وإحراق المدن والسلب والنهب والإجرام في شتى أنحاء الأراضي الأوروبية، وبعد ذلك ولمدة مائتي سنة أصبحت الحياة في فوضى وتشويش إلى درجة لا تناسب بقاء الشخص حياً هناك.

وكانت المدن محصنة، كما كان الأهالي ينسحبون ليلاً داخل أسوارهم المحيطة للإطمئنان، وتجمعت القرى حول قلعة أو نقطة حماية قوية، بينما كان سكان البيوت الريفية يجعلونها قلاعاً صغيرة حولها خنادق تملؤها المياه ويقيمون حواجز وخطوط دفاع حولها، وبذلك كان الرجال والنسوة يتمكنون من اتخاذها ملجأ مع أطفالهم وماشيتهم في حالة الطوارئ. ولم يكن خلال هذه الفترة الزمنية العصيبة قانون أو نظام سائدين في أية منطقة، وماتت التجارة، عدا تلك غير المستقرة التي قام بها اليهود والشرقيون وكانت سلعها مثل الجواهر والعاج المحفور والأعمال الفنية تباع لطبقة النبلاء مع البخور والعطور للكنيسة، وقد قويت المجتمعات البشرية الصغيرة لتصبح معتمدة ومكتفية ذاتياً.

وكانت الحياة تحت تلك الظروف غير باعثة على الارتياح بشكل خطير، ورغم أن النبلاء المحليين. كانوا يملكون الأراضي والقلاع والبيوت المحصنة

التي ينزلون فيها، لكنه لم يكن لديهم إلّا القليل من أسباب الراحة لتخفف من عدم الاطمئنان المقبض للصدر والكئيب صيفاً، أو ليمنع البؤس المجمد على جدرانهم الحجرية شتاءً، وكان طعام رجال الدين ليس بأفضل من طعام البغال، أما الفلاحون، فقد كانوا يقطنون في خيم وأكواخ حقيرة تغطيها الحشائش والقش والطين، تشاركهم فيها حيواناتهم الأليفة أو ماشيتهم، ولم تكن الصحة الشخصية معروفة بحيث اعتبر الغسيل والاغتسال من قبل معظم الناس غير ضروري، أو شواذ، وحتى اعتبره بعضهم خطيئة على نحو قاطع، وقد كان أحد الأشياء التي يجدها الرومان المتمدنون أكثر عداونية في فاتحيهم البربر هي روائحهم، ولم يغير العديد من أحفادهم عاداتهم الشخصية منذ الغزوات البربرية الأولى.

أما الغذاء فكان في نقص، بسبب الضغط السكاني منذ أيام الحكم الروماني، على قطع الأراضي الزراعية الصغيرة التي عانت من الزراعة المتواصلة، بحيث لم يكن لدى الفقير إلا النادر ليأكله أما طبقة النبلاء فلا بد أنها كانت راضية بالوجبات المستمرة نوعاً ما، نظراً لأنهم كانوا يتصيدون فوق أراضي مقاطعاتهم وكانت لديهم كميات وافرة من اللحوم وحيوانات الصيد والسمك، وهناك ثمة وصف لوجبة تناولها القديس لويس الذي كان متنسكاً ومقتصداً في طعامه، ولكنه لم يخطر بباله أنه من غير اللائق أن يتناول في يوم صيام غذاءً احتوى أنواعاً شتى من الأطعمة من السمك والسراطين والأربيان والحبوب والخبز، المهم أن الخضار والفواكه كانت غالية ودليل ترف في الصيف، والبطاطا لم تكن معروفة آنذاك. أما في سني المحل، عندما تكون هناك فيضانات أو قحط يدمر المحاصيل، فقد كان هناك القليل من الاحتياطي لدرء المجاعة وكان الناس يموتون، وقد شاعت في مثل تلك السنين، وحدث في القرن السابق لقيام الحملات الصليبية أن استمرت مجاعة 48 سنة من أصل 100 سنة..

ومع ذلك الوقت، لم تعد موجات البرابرة تشكل الخطر الرئيسي على المجتمع، حيث أصبح المجتمع نفسه بربرياً، وأصبحت الحرب مستوطنة حيث كان يتقاتل النبلاء الثانويون في الضواحي ولم تكن هناك سلطة مركزية قوية بشكل كاف للسيطرة عليهم، وإجبارهم على وضع حد لعدائهم الإجرامي الطويل. وأصبحت الحرب مهنة ومتعة لهم وشغلهم الشاغل والوحيد عدا الصيد، وتحدرت طبقة المحاربين مباشرة من البرابرة الذين فتحوا أوروبا، وسيطروا على أجزائها المتشتتة، لقد ملكوا معظم البلاد وأصبحوا أسياداً لفلاحيهم الذين يحرثونها لهم، وبالمقابل حماهم النبلاء قدر إستطاعتهم ضد أخطار الزمن. وغلبت عليهم مزايا لطافتهم وشجاعتهم وإخلاصهم لرفاقهم في السلاح، بالإضافة إلى ميل حماسي للحياة التي جعلتهم يعيشون حياة مرعبة باستمتاع كبير، ولكنها أيضاً جعلتهم قاطعي طرق دون شرف يغزون بعضهم بعضاً دون إحساس بالارتياب، ويجلسون يحتالون ويعذبون ويقتلون بعضهم بعضاً في عالم ساده العذاب من الجشع والطموح المروعين.

فإذا كانت طبقة المحاربين والنبلاء الاقطاعيين سادت العصور المظلمة في أحلك أزمانها جاعلةً الحياة فظيعة بالحروب الدائمة، فقد تحدت الكنيسة هذه السيطرة. لأنها على نحو جماعي كانت بقدر ضخامة النبلاء والاقطاعيين الدنيويين معاً، وأيضاً تستخدم نفوذها الروحي الهائل. وبشكل عام إستخدمت قوتها ومارست سلطتها بحكمة، وهي مع أخطائها حاولت أن تسمو باسلوب الحياة التي آمنت أنها ستكون حالة ذات صبغة مسيحية أكثر من تلك التي فرضتها بالقوة على كل فرد الفوضوية والاعمال الوحشية للقرنين التاسع والعاشر، وفي الواقع اشمئز بعض رجال الكنيسة المتأخرين من الحرب حتى أنهم شرعوا بحركة لدعم السلام بالتهديد بفرض الحرمان الكنسي على الأشخاص الذين يلجأون إلى السلاح دون سبب وجيه، فتشكلت أحلاف السلام وساندها رجال الدين المسيحي الذين شاعوا شعبياً إلى درجة أن قلاع بعض النبلاء المحليين الذين رفضوا الانضمام إليهم هوجمت بعنف من قبل

عصابات المسالمين المسلحين في حالة متناقضة ظاهرياً، ورائعة للقتال في سبيل قضية السلام.

وأخفقت جميع محاولات التخلص من الحروب، ولكن مساعي أكثر واقعية وطموحاً نجحت في وضع حد لإرهابها، ففرض حظر القتال والعداءات في أيام الآحاد والأيام المقدسة وبقي فيما بعد رئيس الأساقفة في رافين ينادي بهدنة الهية حددت الحرب السرية بثلاثة أيام في الأسبوع، ومع ذلك بقي ثمة متنفس لنزعة القتال الطبيعي عند الرجال، فكان أي شخص يستطيع قتل مسلمي أسبانيا الذين يحدثون اضطرابات لعبور جبال البيرينية ولا يحدث هذا دون الإفلات من العقوبة فحسب، بل أيضاً تحت مباركة الكنيسة والاستحسان الحار من الرب، وكان ذبح الملحدين أو المقاومين للنصرانية يعتبر أعمال تسلية ورعة. في حين أن رجال الدين الذين كانوا يحاولون بإخلاص السمو بالسلام بين المسيحيين، كانوا أطفال زمانهم ونتاج مجتمعهم، وكان شيئاً طبيعياً أن يجد المرء المطارنة ورؤساء الاساقفة يقاتلون بكامل أسلحتهم جنباً إلى جنب مع رفاقهم المسيحيين في حروب مقدسة ضد أعداء النصرانية. وأن ترى سيوفهم الأسقفية حمراء تقطر بدماء الكفرة، وكانوا إذا قتلوا في المعركة على يقين بأن البابا ضمن لهم الغفران ومحو خطاياهم جزء وفاقاً لقتالهم المخلص.

وكان هذا الفعل بالغ الأهمية بالنسبة لهم فقد قيل إن على الناس تكبد مخاوف معينة لو تمسكت بهم تصبح سبباً لاضطرابات عصبية وتجعلهم مرضى ويتضح مثل هذا القلق لدى المرء في علمه بخطيئته، كما ينتج في يقين قدوم يوم ما يموت فيه، وكانت فكرة الذنب مستحوذة على رجال العصور الوسطى، ولم يكن شيئاً مصدماً عند تذكر التباين بين أعمالهم ومثالياتهم المسيحية. كما لم تعن بالنسبة إليهم أكثر من التكفير عن ذنوبهم، ومن أجل هذه الجائزة سوف لن يألوا جهداً في نكران الذات، وتحمل تقريباً أي ضرب من المشقة لأن البديل كان اليقين، إن قتلوا على حين غرة ولم يتحللوا من خطاياهم فيستعين

عليهم أن يعانوا سوء العذاب في جهنم، كما كان رائجاً في أوساط الاعتقاد الشعبي للعصور الوسطى.

كانت فكرة الموت مستحوذة عليهم بشكلٍ متساوٍ وهو ليس بالشيء المفاجئ لأن الموت إمكانية مستمرة دوماً ليس فقط نتيجة لقسوة الزمن المتواصل بل أيضاً لأسباب طبيعية. وفي أيامنا أقصت مهنة الطب الموت الباكر بنجاح كبير إلى درجة أنه إذا مات طفل أو شاب يافع يحزن الجميع بعمق وعندما يتعرض رجل في الخمسينات لصدمة أو ضربة يعتبر موته حادثة قبل الأوان على نحو مأساوي. ولكن الموت في العصور الوسطى كان حادثة يومية متكررة، حيث يموت الناس في عمر الشباب، وكان عدد الوفيات بين الأطفال هائلاً، حيث سرت محنة إنتشار الأمراض المميتة ومصادر الخطر الأخرى بين الأطفال قبل نضوجهم مما كوَّن عاملاً مؤثراً في إضعاف منزلتهم الاجتماعية، وكان أحد البابوات ولداً لعائلة كانت مؤلفة من اثنين وعشرين طفلاً، وقد كان أحد اثنين بقيا على قيد الحياة حتى سن العشرين بينما مات الباقون، وهو شيء بعيد عن أن يكون غير عادي أو مفاجئ، بل هو طبيعي تماماً. ونورد بعض الأمثلة عن أسر حكمت فيما بعد مملكة أو أكثر من الممالك الصليبية فقد مات بلدوين الخامس عن عمر تسع سنوات ومات هيج القبرصي في الرابعة عشرة من عمره وماتت الملكة ماريا المقدسية في الحادية والعشرين من عمرها. وحتى الامبراطور الروماني هنري السادس من أسرة هو هنزتوفن توفي كرجل دولة محترم إلى حد بعيد، وصاحب خبرة واسعة وذا هيبة يخافه الناس بشذة، توفي في سن الثانية والثلاثين.

وكان كل شيء محتمل، فأية إصابة بسيطة ربما تؤدي إلى ما هو أسوأ مثل الحميات، أو إلى التهاب اللوزات، أو المغص أو انفجار الزائدة الدودية، أو أحد من ضروب الأورام المختلفة، يمكن أن يجهز على المرء بعد عدة أيام من المرض، وكانت بعض الأمراض مثل الجذام والطاعون كوارث تقتل ملايين الناس بطرقها المختلفة بين الحين والآخر، أما المجاعات فكانت تأخذ

ضريبتها الهائلة على نحو نظامي ورتيب، وحتى الحوادث الصغيرة غالباً ما كانت أسباب مؤدية للموت، حيث مات الناس نتيجة للسقوط من على أو الاصابة بجرح، أو بالغرق أثناء الصيد، وقد قتل فريدريك بربروسا حينما سقط عن حصانه في الجدول، رغم أنه لم يحدد إذا كان مات سقوطاً أو غرقاً. وكان يحدث أن يقتل الناس أنفسهم بأساليب مختلفة غير مرجحة، كما حدث أن مات ملك القدس أموري الثاني نتيجة لتخمة بسمك البوري.

وقد خلق تأثير الإمكانية المستمرة للموت المفاجئ على عقول الناس، بالإضافة إلى الفكرة المستحوذة عليهم عن الخطيئة والذنب ـ خلق جواً من عدم الإطمئنان الأساسي، وتعين عليهم أن يحيوا فيه أم لا، وكان لهذا آثار بعيدة على الطريقة التي عاشوها، ولربما شجب الرسول اشعيا لترديده مثل هذه الأقوال: «دعنا نأكل ونشرب وسوف نموت غداً» ولكن كان لديهم حد فاصل، لأن كلمة غداً ربما عنت اليوم التالي بدلاً من اليوم الموعد البعيد الغامض في المستقبل الشيخوخي، وكما يبدو بالنسبة لنا أن كان الصوم الشيء الوحيد الذي تمتع به الناس، بينما كانوا يستطيعون الزواج وينشؤون العائلات، ويستحوذون على السلطة، ويقتلون أنفسهم، ويبنون لأنفسهم المجد خلال غفلة اللحظات العابرة لخوفهم من أن تكون فترة امتيازهم قليلة، وفي الواقع اتبعت الأيدي العاملة في القرون الوسطى نصيحة بروتس وانتهزت كل فرصة قبل أن يغمر طريقها الفيضان على أمل أن تعود إلى الحظ السعيد قبل أن يدعوها القبر، وأطلق هذا ينابيع القدرة فيهم، تسوقهم خلال درب الحياة بطريقة تبدو فجأة نشيطة، وقوية على نحو عجيب، ومع ذلك هي ضجرة ومهملة بشكل لا يصدق عندما ينظر إليها بمنظار أفضلية الفراغ بالنسبة لضمان تعميرنا الطويل، كما جعلهم هذا متقلبين على نحو محير، فهم في لحظة يحبون ويتسمون بالنبل والشهامة ومفعمين بأنبل المثاليات، ولكنهم في لحظة أخرى كانوا يتصرفون بوحشية إجرامية فظة، لا يتورعون عن القيام بأعمال العنف ولا يحترمون الكهل أو المرأة أو الطفل.

أما العالم الطبيعي الذي تسكنه طبقة الأيدي العاملة في العصور المظلمة، فكان تفهمه بطريقة مختلفة عن إدراكنا إلى حد أنه من الصعب علينا إعادة تصوره، وأما صياغتهم النظرية للعالم الذي كان يشكل خلفية غير متميزة لتصور عقولهم، فلم تكن تمت بأية علاقة على الإطلاق للصورة الذهنية للعالم التي نحملها في أذهاننا، ويكاد يكون من الضروري أن نوضح أنه ليست ثمة وقائع انكشفت لنا بالمجهر العالمي الحديث كانت معروفة لديهم ولكن من الواضح كما يبدو، إنه من السهل نسيان أن هذا قد باعد بين عالمهم الفكري وعالمنا. فهم قد عاشوا في عالم مستقر: عالم ينتشر او يمتد حولهم مثل سهل متطاول بلا نهاية، ولا يستطيع إنسان رؤية حوافه، ولكنه عالم يعرفه كل سليم عقل انه موجود في مكان ما بعيد على نحو شاسع ومختبئ في سديم الأرض المجهولة. لقد كان عالماً أكبر وأكثر غموضاً من عالمنا: أكثر لأن مسافاته كانت تقاس بالأطوال الزمنية التي يمضيها المرء حتى يقطعها، وأكثر غموضاً لأنه لا زال هناك الكثير منه مجهولاً. ولم تكن الرحلات الطويلة واردة على الإطلاق. وربما كان الحاج إلى الأرض المقدسة مثلاً من سانت اليانس أو كوتانس أو فرانكفوت يستغرق مدة ثلاث إلى أربع سنوات لاتمامها ذهاباً وإياباً. أما نحن فنطير من لندن إلى مطار اللدفي خمس ساعات، وعلى الأرجح فإن الحاج نفسه لم يغادر إلى أبعد من عشرين ميلاً خارج مكان ولادته، قبل الانطلاق في رحلته لتحمل الصبر والمشقة وحتى أنه لا بدقد بدا سكان الاقليم التالي لغزاً بالنسبة إليه، وربما لم يشهد البحر، ولكان السكان المتلكمون لغة مختلفة عن عالمه تقريباً بقدر قدوم زائر من الفضاء الخارجي، كأمر غريب بالنسبة لنا.

ولكن بالطبع لا بد من أنه سمع عن بلاد أجنبية وأصبح معتاداً على أعاجيب الأسفار. ولكن ما لم يفقد غموضه، وكان القسم الكبير غير المكتشف من الأرض إلى خلف حدود العالم المعروف، وتسربت إشاعات عن حيوانات غريبة وأناس دخلاء خارج الحدود الشرقية لبلاد فارس والهنود،

والأراضي الصينية والمغولية، واختلطت مع خرافات عن عمالقة وظلمان وأنواع من التنين بعين واحدة، وعن أناس يأكلون أطفالهم، ووصلت روايات عن ممالك إلى الجنوب من الثرى والحرارة لصحارى شمال افريقيا، حيث شاعت أن مواد الخام والذهب والأحجار الكريمة كالتراب وتملأ تلك البلاد الحيوانات الغريبة مثل وحيد القرن والزرافة وحيوانات ضخمة وقوية وصفت في «كتاب العمل»، وهو على الأرجح كان وصفاً خرافياً للتمساح، الذي تكمن قوته في خاصرته، ومقدرته في عضلات بطنه ويحرك ذنبه مثل شجر الأرز، وتنعقد أعصاب فخذه مع بعضها بعضاً وعظامه من أنابيب نحاسية وأطرافه من قضبان حديدية، وحتى ما يقع خلف هذه المناطق البعيدة والاستثنائية لا يمكن تخليه، فقد كان مجهولاً كلية. وماذا يقع وراء الأطلسي، وهل الأرض التي راجت الاشاعات عن بردها وظلمتها الدائمين مثل شمال السديم الثلجي، وقدم منها البربر، وتحضن أيضاً أجناساً أكثر شراسة؟ لم يكن أحد يعلم ولا أين هي تنتهي، لقد كانت لغزاً محيراً ولا يستطيع أحد حله. وفي الواقع، أن العالم اليومي الذي كان يعيش فيه إنسان العصر الوسيط من بعض النواحي يلفه الغموض بالنسبة إليه أكثر من العالم الآخر الذي عرف حتماً أنه راحل إليه بعد الموت. لأن الخطوط الرئيسية لعالم المستقبل كانت واضحة بشكل كامل في عقله ولا يعتريها أي شك، ففوقه قبة السماء حيث يسكن الرب في عليائه تحيطه الملائكة وجميع ضيوف السماء فالرب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وعينه الرقيب اليقظ لا يهمل صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان الجنس الغالي من أجل الخطر الخالد ـ أخطاؤه الكبيرة والصغيرة تدخل بشكل قاطع في كتاب الحكم من السماء وأعماله هي التوبة والفضيلة. فإذا كانت ـ عندما يموت المرء ـ صحيفة ميزانه السماوي في الجانب الأيمن ينضم إلى رفاق كثيرين من القديسين والشهداء في الجنة، أما إذا كانت في الجانب الأيسر بسبب تراكم ذنوبه العرضية فلديه فرصة لتصحيحها خلال سني الألم والتوبة في موطن تطهر فيه النفوس ولكن إذا ثقلت موازينه بأثقال كبيرة من الذنوب المهلكة الرهيب،

فيؤخذ دون ريب إلى جهنم حيث تعذبه الشياطين وتحرقه النار الأبدية، ويخضع لشقاء دائم محفوظ لكل ملعون.

إن هذا الوصف للعوالم التي تتدلى من الأعلى وتطوق من الأسفل سهلاً منبسطاً فسيحاً للعالم الطبيعي، لم يكن أبداً وسيلة لوصف ما لا يوصف باللغة التصويرية فاتخذت على أنها طريقة خرافية للتكلم عن الرب والإنسان والقدر والاختيار ذلك أن الجنة والنار كانت وقائع مادية حيث يذهب المرء إلى هذه أو تلك في المستقبل، هي لربما في الواقع، من أصعب الأشياء قبولاً بالنسبة لشخص يعيش في القرن العشرين، فقد كانت بالنسبة العصور الوسطى الحقيقة الأسياسية ولم تكن تلك من الشؤون اليومية السياسية والاقتصادية، وأن الدين أقحم ضمنها كخيار أضافي لمن له ميل روحي في أيام الآحاد، وربما لوقت قصير كل يوم خلال بقية أيام الأسبوع. ولكنها على النقيض كانت بالنسبة لأنسان العصور الوسطى الحقيقةالأساسية الأولية التي وضعت في رسوم جدارية، وعلى نوافذ زجاجية ملونة لكنائسه وكاتدرائياته، فعاش حياته اليومية وفقاً لنظرته للخلود والحساب.

وكان الخوف فقط ينال من أولئك الذين كانوا أطفالاً من الظلام، والمرور من زاوية معينة فوق درج فيه شيء مخيف، أو المشي عند ملتقى أحجار مرصوفة خوفاً من بلاء مرعب ينزل نتيجة لذلك، وكل إنسان مهما حاول تصور الأمور يبقى تصوره عملاً باهتا عما شعر به انسان العصور الوسطى، فقد كان عالمه مكاناً مرعباً وروحياً على نحو عميق وسطحي لما وراء الطبيعة، كما كان مكاناً للمعجزات حيث تخضع فيه الأشياء المادية لقوة الأرواح، وحيث هناك صراع بين قوى الجنة وقوى الجحيم في تقدم مستمر، وتترصد الأرواح الشريرة في انتظار للانسان الفاضل عند تقاطع الطرق، وقرب قبور المعدومين، وعند أطراف الغابات وجانب الحجارة الواقفة وفي الأفواه الفاغرة، وفجوات الحجارة وثقوب الأباريق، وفي الكهوف لأنها تنزل بشكل واضح إلى جوف جهنم. وكان الخونة الأقزام والمجانين والسحرة

والمشعوذين وأشباح الموتى المتحركون جميعاً تخيف كل شخص، وهي جنود الصدام المتنكرة التابعة للشيطان، ويستطيع أولئك الذين يميزونها في الوقت المناسب مقاومتها بلفظ وترديد إسم المسيح برسم إشارته .التي يفزعون منها رعباً.

ولحسن الحظ يترك الناس دون أحلاف سماوية في هذا الصراع الدائم مع الأشباح الذي يجري داخلهم وحولهم. وكانت هناك ملائكة تحرسهم يمكن دعوتها عند الحاجة، كما تفعل الصلوات وأدعية القديسين فعلها العجيب، وصنفت الملائكة إلى جانب الآلهة الكبرى في المعركة الكونية، تتنكر برفق بصور قديسين مسيحيين يصنعون المعجزات ولهم مقامات ومشاهد في الكنائس مبنية فوق المذابح القديمة، أو إلى جانب الجداول والآبار المقدسة أو جانب الأشجار العتيقة حيث كانت تعبد لقرون قبل العهود المسيحية. أما العرائس اللواتي لم يصبحن حبالى بسرعة فيكفي أن يكبتن مخاوفهن أنهن عاقرات، فيسارعن لتقديم بعض القرابين لمزار قديس محلي أو يؤدين احترامهن المتواضع إلى صورة مقدسة لأم الرب بالأخص تلك التي عليها عباءة ربة الخصب الكبيرة أو عباءة ربة الأرض الأم الكبيرة. أما الذين يعانون من الأمراض المزمنة فكانوا يرتحلون مسافة أميال للبحث عن العلاج في أماكن حيث استشار في يوم الرومان والأغريق الطبيب اسكالابيوس أو أوفياروس وإلى أماكن فيها آبار ونوافير يرمي في وسطها السواح في تلك الأيام بقطع نقدية لاعتقادهم بقدرتها الخارقة. وكان رجال ونساء العصور الوسطى يذهبون ليطلبوا مساعدة من رب محلي قديم، أو من أماكن العفاريت الذين كانوا يعبدون منذ أيام العصور الحجرية.

ان هذا الترافق الشديد لقوى روحانية مع أماكن متينة له نظير متمم في علاقتهم الأشد مع أشياء خاصة، فعلى الرغم من أن الاعجاب بالآثار التذكارية كان شيئاً عالمياً، ورغم أنه يعتبر في أحسن الأحوال تحت الشبهات، وفي أسوأ الأحوال مجالاً للسخرية والازدراء، لكن له منطقه الخاص به، لأنه

لو استطاع الإنسان اليوم خزن خصلة من شعر رأس زوجته التي ماتت، وعرف أن بين ذراعيها معجزة خلاقة من الحب فكم هو معقول جداً بالنسبة لإنسان العصور الوسطى أن يختزن قطعاً خشبية من الصليب الذي حدثت فوقه في وقت ما معجزة قصة غرامية للرب من أجل تخليص العالم كله من الخطيئة؟ وللسبب نفسه، كان تبجيل جثث القديسين الموتى التي من خلالها تكلم وفعل الرب، فهناك لسان القديس مارك ومنديل فيرونيكا العجيب أو الثوب الذي ارتداه يولي كارب الذي نال الشهادة في أزمير. وفي الواقع لم تكن مثل هذه الأشياء تثمن غالياً فحسب ولكن حيثما وجدت، وجدت غالباً مغلقة بوسائل من الذهب مصنوعة على نحو عجيب ورائع ومرصع بالأحجار الكريمة التي أصبحت مقاصد للحج. وقد كان العديد منها تحفظه أماكن عديدة، فكانت روما مليئة ببقايا وأثار قديمة لمعتقد بال ولم تكن لتجار القسطنطينية وكان آلاف الحجاج إلى الأرض المقدسة يمرون بأكبر المدن في العالم (وكانت عشرة أضعاف ضخامة أية مدينة أخرى في ذلك الوقت) لكي يحدقوا برهبة وإجلال إلى مجموعاتها من الأشياء المقدسة التي لا يمكن منافستها. وكانوا يطوفون مارين من أماكن مثل خشبة الصليب وتاج الشوك والرداء الوحيد ومسامير صلب المسيح مروراً بأشياء أخرى مثل زنار الذي لبسته فيما مضى مريم العذراء المقدسة وخصلة الشعر المقطوعة من رأس جون يوحنا المعمدان، ثم إلى فيض سن التذكاريات لرجال وقديسين أتقياء، وكانت قد حملت إلى المدينة جثة النبي دانيال من قبل والدة قسطنطين القديسة هيلينه أم الأمبراطور قسطنطين الكبير. وفيما بعد بقليل وصلت جثث القديس تيموزي والقديس أندروس والقديس لوقا وسرعان ما إنضمت إليها جثث صموئيل وأشعيا. وفي أيام جستنيان أتى جثمان القديسة آن لينفخ الحياة في هذه المجموعة المتيبسة والصامتة من الجثث الميتة.

وفي عالم محتشد بالأشياء المقدسة والأماكن المقدسة يأتي حتما الناس إلى اعتبار بعضها أقدس من أخرى، وهي أماكن طبيعية حيث قام المسيح

بمعجزاته فيما مضى ووطأ نفس أرضها التي وطأها الانسان الخاطئ الذي يحتل المنزلة المقدسة فيها جميعا. ومن أجل زياراتها والوقوف حيث وقف في الماضي المسيح والرسل للنظر بخشية وتبجيل إلى التلال وبساتين الزيتون وإلى البحيرات والجداول الصغيرة والمدن والقرى التي عرفوها في زمانهم - ينبغي على المرء أن يدخل في اتصال روحي معها له خاصيته المباشرية، وليس من شرط آخر. وهكذا تطور ببطء نوع من التسلسل الجغرافي للأماكن الدينية، فهناك في اسبانيا كومبوستيلا حيث ادخر جثمان جيمس العظيم، وهو أخ جون يوحنا المعمدان وابن زبدي ويحتل منزلة تالية لروما حيث عاش ومات القديسان بطرس وبول وتصنف روما في المنزلة الثانية بالنسبة للقدس والأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين، وكان القيام بالحج إلى تلك الأماكن رغبة عميقة لدى كل شخص. وهو راض من أجل اشباع هذه الرغبة بتحمل أكبر قدر من المشقة والخطر.

وكان ثمة قيود. ورغم عهود الإيمان فقد برزت مسألة أنه لم يعد العديد من الناس معدين للرحيل إلى القدس، ثم أن هناك مكانة سماوية هائلة لمثل هذا الارتحال وللثواب الذي يمكن أن ينالوه في يوم الحساب، وكانت صدمة هائلة لجميع الصليبيين عندما سقطت القدس في أيدي جيوش الإسلام سنة 638، وعلى أية حال فقد ثبت أن فاتحيها المسلمين كانوا متسامحين على نحو مدهش مع تابعيهم المسيحيين. وفي الواقع رحب بعض المسيحيين هناك بحرارة بالحياة تحت قيادة حاكميهم الجدد، وفضلوها على تلك التي توجب تحملها لقرون تحت سيطرة الأباطرة البيزنطيين، الذين لم يرهقوهم بالضرائب الكثيرة فحسب، بل كانوا يضطهدونهم لعقائدهم المنشقة. ونقول منشقة حسب المعايير التي آمنت بها القسطنطينية، ولكنها كانت مرفوضة في فلسطين وسورية ومصر، فقد أفسح المسلمون لهم المجال على الأقل ليؤمنوا بما اعتقدوا به، وبعبادة ما فكروا أنه مناسب. كما أفسحوا المجال للحجاج من الغرب لزيارة المواقع الدينية المقدسة دون عائق، فازدادت باطراد أعداد المسيحيين القادمين

للصلاة عند موضع الآثار المقدسة فوق جبل الزيتون أو في كنيسة عيد المهد في بيت لحم ولكن في بعض الأحيان أظهرت الرحلات مخاطر وصعوبات، كما حدث عندما استغرقت رحلة رجل انكليزي يدعى ويلي بولد سبعة أعوام وذلك في السنين الأولى من القرن الثامن. كما كان يعاق تدفق الحجاج الشرقيين، إضافة إلى القرصنة التي أغلقت البحر المتوسط في دورة العصور الوسطى في القرن التاسع. وكما أن أحد الخلفاء كان أحمقا جعل الحياة فظيعة للجميع في نهاية القرن العاشر. إنما عل العموم شجعت السلطات الإسلامية الحجاج على القدوم وحمتهم من الأخطار.

وفي 19 آب 1071 تعرضت هذه الحالة السعيدة نسبياً لنهاية مفاجئة. ذلك أن الأتراك السلاجقة وهم جنس من الرعاة البدو في سهوب آسيا الوسطى الذين اهتدوا إلى دين الإسلام خلال سير الهجرة الضخمة نحو الغرب التي فرضتها عليهم حالة الضغط السكاني على الموارد المحدودة من أراضي الرعي الآسيوية القديمة. وكانوا قد ازدادوا قوة لسنين، وفي عام 1055 دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة هناك، ومنذ ذلك الوقت أصبحوا سادة الامبراطورية التي امتدت من آسيا الوسطى وروسيا الجنوبية إلى الحدود الشمالية من بلاد سورية. اتصلت مع الامبراطورية البيزنطية. وكان ثمة مناوشات على الحدود حيث قتل العديد من الطرفين واشتعلت حروب غير رسمية عندما كان يطوف البدو الأتراك مع قطعاتهم ومخيماتهم فوق تخوم هضاب أناضول بحثاً عن الكلأ. ودخلوا في نزاعات مع المزارعين البيزنطيين ومالكي الأراضي الذين غزيت أوطانهم. ومع حتمية المأساة الأغريقية فإن القوتين دخلتا سلسلة صدامات أدت إلى دمار لأحداها. وكان جيش الامبراطورية البيزنطية هو الذي دمر في آب سنة 1071 في معركة حدثت في مكان قريب قرب بحيرة وأن تدعى منازكرد شرق تركيا وبعدها لم يكن هناك من شيء يوقف الرعاة الأتراك من اجتياح الأناضول.

لقد كانت نكبة مدمرة للامبراطورية البيزنطية وأغلقت طرق الحجاج

الغربيين عبر آسيا الصغرى إلى الأرض المقدسة، فإذا مازال المسيحيون في الغرب يرغبون في زيارة تلك الأرض حيث عاش ومات المسيح بات عليهم السفر بحراً أو مساعدة رفاقهم الشرقيين المسيحيين لاستعادة الأرض التي خسروها، وكانوا قد اعتادوا على القتال ضد المسلمين في إسبانيا من أجل إنقاذ الأراضي المسيحية من الحكم العادي، ولكي ينالوا الأهلية من الرب لدفاعهم عن الدين المسيحي ضد أعدائه. ولذا كانت فكرة حتمية القيام بحرب مقدسة ضد الأتراك لانقاذ أقدس الأماكن المقدسة في العالم المسيحي من الهيمنة المعادية وسرعان ما خطرت الفكرة إلى البال المسيحي، وكانت النتيجة الحروب الصليبية.

obeikandl.com